

صبي يسأل : من اخترع المدارس ؟

بقلم الدكتور أحمد زكى

قلت للصبي : «فى هذا الشهر يذهب الصيف ، وينتهى البحر ، والعموم» .
قال الصبي : «ثم ماذا ؟» .
قلت : «تفتح المدارس» .
فوجم ، ثم فكر ، ثم سأل : «من اخترع المدارس ؟» .
سؤال لا يسأله على هذا النحو ، وفى هذه المناسبة الا لا ذى ضيق . ضيق
بالمدراس ونكراها .

لم يكن الصبي غيبيا ، ولم يكن متخلفا . كان الأول فى فصله ومدرسته ،
بل الأول فى منطقته ، وكأئنه دائما . ولم يكن فى عامه الدراسى مرهقا فهو
يرأوح بين الدراسة واللعب . وله فى الرياضة البدنية جهود كسب منها
جوائز ، ومع هذا فهو يسأل ، وقد انتهى الصيف : من اخترع المدارس ؟ .
ولست أحسب ، ولست تحسب يا قارئى ، أنه سأل هذا السؤال اعجابا
بمن اخترعها .

اخترع المدارس من اخترع المستشفيات :

وأجبتة على سؤاله فى شىء من التفصيل ، اجماله أن الذى اخترع
المدراس ، هو الذى اخترع المستشفيات ، وأخترع الأسواق والبنوك ، ذلك
الفكر الانسانى غير المسمى الذى لا يألوا فى المدنية التى اصطنعها تنظيما ،
ولا يألوا لها توسيعا . ويكثر الناس ففتغير أساليب كانت تنفع على قلة .
والمدراس فى القديم كانت تتألف من أستاذ يحوطه ويلزمه عدة من
طلاب ، كانوا هم طالبيه ، وكانوا مريديه . ويتحلقوا حوله ، يقول فيستمعون
ويسجلون ، وفى الذى يقول يناقشون . ويجتمع بهم عندما يريد ، فى ساعة
تتفق . ويدرس مايشاء لا مايشاؤون . وما كان لهم أن شاءوا . فهؤلاء كبار

(*) الهلال ، سبتمبر ١٩٥٧ ، صص ١٨ - ٢١ .

(دراسات تربوية)

الطلاب • أما صغارهم فكان لهم المؤدبون ، يودبونهم فرادى أو مجتمعين ،
يعلمونهم القراءة والكتابة والحساب •

وكان التعليم قليلا ، وكان أكثره فرديا •

ثم تجمع أهل العلم فى مساجد ومعابد ، فكانت هذه نواة الكليات
والمدارس •

ثم كثر الطلاب فكان لابد لجمعهم من تحديد مكان ، وتحديد زمان •
وتشعبت العلوم فكان لابد من تحديد دراسات وبرامج •

سمع الصبى هذا ، وأكثر من هذا ، ففهم ، وكأنه ارتاح ، ارتياح من
يقول : لاحيلة •

المدارس أشياء مصطنعة :

والحق أن المدارس من أقل الأشياء موافقة لطبع انسان ، وهى أقل
موافقة لطبع صبى • تعلم ذلك ساعة الخروج من المدارس ، ساعة الانصراف
كل يوم • يخرجون فى لهفة ، وجريا ، وفى عنف ، خروج من أطلق سراحه
من بعد سجن • وهم على هذا الحال أقرب الى اشتباك فى نزاع • أعلم هذا
لأنى أسكن بالمعادي فى شارع نصب فيه مدارس للصبية ثلاث ، اثنتان للبنين
وواحدة للبنات • ويلذ لى مراقبتهم عند الخروج ، وبينهم نور الصدور
المكرومة وهى تتنفس وتتوثب ، وتتهيا لاشتجار مع أى شىء : مع أنفس
مثلها ، فان لم تستطع فمع الحجر ، تأخذ به وتقذف ، ولاتبالى أين تقذف •
بخار تراكم فى مرجل تحت ضغط ، فلايد من انطلاقه ، وكم انطلق فأصاب
من حوله • ويشتجر صبية المدرستين ، لا عن خبث واضطغان ، ولكن عن
فورة ، فيستعان ببعض حماة القانون • وأرى هذا فأضحك ، ولاتضحك
الناظرة • وهى لاتضحك لأنها ترى فيما جرى اختلال نظام ، وهى أحرص
ماتكون على نظام ، وسمعتها الطيبة قائمة على نظام طيب • أما أنا فأضحك
لأنى أرى أن المدينة هى التى اصطنعت المدارس ، وهى جذنت الصبية فيها ،
والتجنيد حبس ، والحبس للأجسام النامية كظم • والمدينة نفسها هى التى
اصطنعت الجند لاقرار النظام • فلما استدعوا حماة القانون التقى نتاج
للمدينة مصطنع بنتاج مثله •

ولست أعيب المدارس نظاما .
ولست أعيب الجند نظاما .
وانما أنا أفكر فى هذه المدنية الانسانية التى تتألف من نظم كلها
مصطنعة . وهنا أسائل نفسى ، ويسائل معى آلاف من البشر : هل تعيب
المدنية ما فيها من اصطناع ؟

المدنية وأساليب الطبيعة :

أن تجميع الصبية هكذا فى المدارس ، وتوزيعهم على حجراتها ، وبقاءهم
فيها يستمعون الساعة من بعد الساعة ، يتحكم فيهم عقربان يدوران ، وجرس
يدق ، احتر الجو أو برد ، واتفق مزاجهم فرادى أو لم يتفق ، ومال منهم
للنوم فى بحر النهار على عادة الناس من مال أو صحا ، كل هذا شئ لم
يكن فى نظام الطبيعة الأول .

ولكن المدنية فى كل أساليبها خرجت عن هذا النظام الطبيعى الأول .
حتى فى ضرورات الحياة الأولى خرج الانسان عن النظام «الحبيب»
الذى بدأت به الطبيعة العيش .

ان الانسان لم يكن يعرف ما النار ، ثم اكتشفها . وقبل أن يكتشفها كان
لايجد الدفء الا فى الشمس . وجهل ما الطبخ فكان يأكل اللحم نيئا فالنار
استحدثت مدنية ، والاستدفاء بها والطبخ ابتداء . ومن بنى الناس من يأكل
الى اليوم الطعام غير مطبوخ .

والانسان بدأ الحياة عاريا ، لاثياب له الا الهواء . ثم هو استحدث
الخيط واستحدث النسيج . ومساكنه كانت الكهوف ، ثم هو استحدث الحجر ،
واستحدث الأجر ، واستحدث الملاط ، وسكن . فليس فى مساكننا من أسلوب
الحياة الأول شئ .

وشعر الانسان طال فوق رأسه ، وعلى وجهه ، فكانت اللحى والشوارب
طبيعة . ثم استحدث الشفرة فحلق ، وخلقت من الوجه صورة ينكرها
الانسان الأول .

الفترة لاتعرف الدباغة والصباغة :

ومع هذا ، فمن الناس من ينسى كل هذا .

من الناس من تحدّثه فى أمر شىء ، أو أمر عادة ، فلا يرضاهما ، ويرضى نقيضها ، وكل حجته فى هذا أن يمتدحها بأنها أقرب الى الطبيعة وأقرب الى الفطرة .

وتبحث فى شئونه ، ولو كان بدويا ، فتجد أنه ما كان أبعد عن طبيعة وعن فطرة .

وتدعوه الى طعام ، وعلى المائدة السكين والشوكة والملقعة ، فيعمد الى أصابعه يغوص بها فى الطعام غوصا . لماذا ؟ لانها الفطرة ، ولأن الله خلق الأصابع لهذا . ويعجبني قوله ان الله خلق الأصابع لهذا ، ولكن لاتعجبني حجته بأنها الفطرة . لأنى انظر الى سائره فأجد الحذاء ، وهو من جلد مدبوغ مصنوع ، والفطرة لاتعرف الدباغة ولا الأحذية صناعة . وأجد الثوب الذى عليه من صوف أو حرير مصبوغ ، والفطرة لاتعرف الصوف والحرير ثيابا ، ولم تعرف ما الصباغة . وشعره مقصوص فلو أنه آمن بالفطرة حقا لارسله .

ولست أدافع عن أكل بشوكة وسكين ، أو لبس صوف وحرير ، ولكن أدفع تلك الحجة التى كثيرا ما تضلل الناس ، لافى صغيرات الأمور ، ولكن فى كبيراتها ، فتمنع عنهم الخير بأن تكره اليهم المدنية بأنها شىء مصطنع ، فلا يسيرون مع أمم الأرض فى سبيلها ، فيتخلفون أفرادا ، ويتخلفون أمة ، ويسبق غيرهم والسبق سيادة .

انهم يتوقفون ويتخلفون ، وليتهم وقفوا عند فطرة . أنهم وقفوا من طريق مدنية سار فيها أجدادهم على بعد خطوات كثيرة عديدة من فطرة للانسان أولى . ووصفوا ما وقفوا عنده فى طريق هذه المدنية القديمة فطرة . تلبس عليهم الأمر فأخطأوا .

• وقالوا هذا شرقى وهذا غربى •

وقالوا فى أسلوب مآكل أو مطعم أو مسكن ، أو عادات تعودها الانسان فى شتى بقاع الأرض ، أن هذا شرقى وهذا غربى .

وحمدوا الشرقى لمجرد شرقيته . وذموا الغربى لمجرد غربيته .

والغرب تكره فيه سياسة ، وهو يكره سياسة ، لاشك فى هذا بل هو فى
• هذا يمقت مقنا .

ولكن كيف يعزف عن علم وفن ، وعن آداب ، لأنها شرقية أو غربية .
أو كيف يعزف عن عادات قزم وأساليب عيش ، اقتضاها ذلك العلم وذلك
الفن ، اقتضتها تلك المدنية عامة ، لأنها اصطناعية ، فى حين أن العلم ، الذى
يمجده اليوم كل أهل الأرض ، أبعد مايكون عن فطرة .

• وان تكن البداوة أقرب شىء الى فطرة ، فالعلم أبعد شىء عن بداوة .
وهو لو عاش فيها لمات ليومه ، لأن العلم اصطناع بدأ ، اصطناعا ولاينتهى
• الا عند اصطناع .

• كل ما أنتجه الفكر الفطرى فطرة •

ثم ما هذه الفطرة التى يتحدثون عنها ، ويزجون بها فى النقاش تعزيرا
لكراهة ؟ !

انى أعود فأقول ان كل هذه الأشياء التى سميتها مصطنعة انما
هى أشياء فطرية ، فطرها العقل الانسانى ، وأى شىء كالعقل فى الانسان
يمكن أن يكون فطرة .

• وكل ما فطر العقل فهو فطرة • مآكلنا ، وملابسنا ، ومسآكلنا ، وعلمنا ،
وفننا ، وعاداتنا ، مهما بلغت من درجات فى مدنية ، فهى فطرة ، لأن العقل
فطرها • فان أنت سميتها مصنوعة ، فذلك لأن الفطرة صنعتها •

ومدارسنا ، تلك التى بدأنا بها الحديث ، وسميناها مصنوعة ، هى
من تنظيم العقل الانسانى ، ومن ترتبيه ، وهى بعض حيلته ، فهى من انتاج
تلك الفطرة الأولى التى هى فكر الانسان ، وفطنته ونكاؤه •



حكمة رائعة

على باب إحدى الكنائس فى أمريكا سجلت هذه الكلمة الرائعة
« كثير من الناس يشعرون بالوحدة والوحشة ، ذلك لأنهم يشيدون جدراننا
بدلا من إقامة جسور » •